

# التشاؤم

## عناصر الموضوع

١٤٤	مفهوم التشاؤم
١٤٥	الألفاظ ذات الصلة
١٤٧	التشاؤم عادة جاهلية
١٥٣	أسباب التشاؤم
١٦٣	صور التشاؤم
١٧٧	نسبة المصائب إلى أشخاص
١٧٨	آثار التشاؤم
١٨٠	علاج التشاؤم

## مفهوم التشاؤم

لم يرد لفظ التشاؤم في القرآن الكريم، بل جاء ما يدل عليه في بعض الآيات الكريمة بالمعنى نفسه وبسياقات متنوعة، لذا لا بد أن نبين معنى التشاؤم في اللغة والاصطلاح.

### أولاً: المعنى اللغوي:

التشاؤم في اللغة: مصدر شئم، والشؤم: خلاف اليمن، يقال: رجل مشؤوم على قومه، أي: غير مبارك، والجمع مشائم، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به، ويقال: شؤم الدار: ضيقها وسوء جارها، نذير شؤم: علامة وقوع مكروه، ما ينبئ بشر ويبعث على الخوف، والتشاؤم: توقع الشر<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: المعنى الاصطلاحي.

عرفه الحليمي: بأنه سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق<sup>(٢)</sup>. أو هو توقع حدوث الشر أو المكروه من شيء ما تراه أو تسمعه وتتوهم وقوع المكروه به<sup>(٣)</sup>، ويكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر<sup>(٤)</sup>.

«ويأتي بمعنى تشاؤم الإنسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي، فأما نفارها مما هو طبيعي في الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا، وأصله في زجر الطير، وما سواه ملحق به، ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية عمن أخبر عنه: ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَأْتِرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]. أي: السبب الذي يسعدكم ويشقيكم عند الله»<sup>(٥)</sup>.

ويتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التشاؤم: حالة نفسية تلازم بعض الناس، وتبعث في نفوسهم اليأس وعدم الرضا بقدر الله عز وجل.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ١٩٥٧/٥، لسان العرب، ابن منظور، ٣١٤/١٢، المصباح المنير،

الفيومي، ٣٢٨/١، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ١١٥٤/٢.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢١٥/١٠.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ٤٨٢/١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦٦/٩.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، ص ١٤٨.

## الألفاظ ذات الصلة

## ١ التطير:

## التطير في اللغة:

وهو مأخوذ من مادة (ط ي ر)، والطاء والياء والراء أصل واحد يدل على خفة الشيء في الهواء، ثم يستعار ذلك في غيره وفي كل سرعة، فأما قولهم: تطير من الشيء، فاشتقاقه من الطير، كالغراب وما أشبهه<sup>(١)</sup>، والاسم (الطيرة) وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَطَيْرًا يَكُ﴾ [النمل: ٤٧] أصله: تطيرنا، فأدغم<sup>(٢)</sup>.

## التطير في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن اللغوي.

قال ابن القيم رحمه الله: «التطير: هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالة أشد على النفس، لأن توقع الضرر أدخل في النفوس من رجاء النفع»<sup>(٤)</sup>.

## الصلة بين التطير والتشاؤم:

يتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التطير مأخوذ من الطير في الأصل، ويأتي بمعنى التشاؤم أو التيمن بحركات الطير وأصواتها، ثم صار لفظاً عاماً لكل ما تشاءمت به من طائر أو إنسان أو حيوان أو جماد، وغير ذلك، وعلى هذا فالتطير هو التشاؤم بما يرى من مرور الطير ونحو ذلك ناحية الشمال أو بما يسمع من صوت طائر، كائنًا ما كان، وعلى أية حال كان، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في حصول الشر.

## ٢ التفاؤل:

## التفاؤل في اللغة:

وأصله الفأل (الفاء والألف واللام)، أي: ما يتفاءل به، وضد الطيرة، والجمع: فؤول، قال الجوهري: الجمع أفؤل، وتفاءلت به وتفاءل به؛ قال ابن الأثير: يقال تفاءلت بكذا وتفاءلت،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٣٦/٣.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ١٩٤/١.

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢٤٦/٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ٦٦/٩.

على التخفيف والقلب، والفأل: أن يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول يا واجد، فيقول: تفاءلت بكذا، ويتوجه له في ظنه كما سمع أنه يبرأ من مرضه أو يجد ضالته، والطيرة: ضد الفأل، وهي فيما يكره كالفأل فيما يستحب، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، والفأل يكون فيما يحسن وفيما يسوء، والاسم الفأل مهموز، يقال: لا فأل عليك، بمعنى لا ضير عليك، ولا طير عليك، ولا شر عليك<sup>(١)</sup>.

### التفاؤل في الاصطلاح:

وهو حسن ظن بالله عز وجل<sup>(٢)</sup>.

### الصلة بين التفاؤل والتشاؤم:

العلاقة بين التفاؤل والتشاؤم هو: أن الفأل يأتي من طريق حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه، بينما التشاؤم لا يكون إلا في السوء والمكروه.

## ٣ التوكل:

### التوكل في اللغة:

مصدر توكل يتوكل، وهو مأخوذ من مادة (وكل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل، وهو: إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك<sup>(٣)</sup>.

### التوكل في الاصطلاح:

صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار<sup>(٤)</sup>.

### الصلة بين التوكل والتشاؤم:

التوكل هو ثقة العبد بالله تعالى والاعتماد عليه في كل الأمور، والرضا بقضائه وقدره، بخلاف التشاؤم الذي يظهر فيه سوء الظن بقضاء الله تعالى وقدره.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ١١/٥١٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/٢١٥.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١١/٧٣٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/٦٧٠.

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٤٠٩، التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

﴿طَتَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، بأنه ومن معه ليسوا سبب شؤم، ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله، واستعير لما حل بهم اسم الطائر مشاكلة لقولهم ﴿أَطْرَبْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ﴾، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم، بقرينة قولهم اطيرنا بك<sup>(٢)</sup>.

ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه، ويحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته<sup>(٣)</sup>.

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال تعالى عنهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (١٧) ﴿كَانَ لَمْ يَعْتَوِهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ التَّمُودِ﴾ (١٨) [هود: ٦٧-٦٨].

ويتضح مما تقدم: أن تمود - وهم قوم صالح عليه السلام - كانوا يتشاءمون من نبيهم ومن معه من المؤمنين، كأنهم يقولون لهم: أنتم نحس علينا، بمعنى أنك يا صالح كنت أنت ومن معك سبباً لتشاؤمنا، فرد عليهم صالح عليه السلام: طائرکم الذي

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/٢٨١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/٥٦٠، أنوار التنزيل، البياضي، ٤/١٦٢.

## التشاؤم عادة جاهلية

لا شك أن التشاؤم هو من عادات أهل الجاهلية والأمم الوثنية السابقة حيث كانوا يتشاءمون من أمور كثيرة، لذا جاء الإسلام فأبطلها؛ لأنها تخل بعقيدة المسلم الصحيحة القائمة على الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وفي هذا المبحث سنين بعض الأقسام الذين كانت أبرز صفاتهم التشاؤم وذلك من خلال النماذج الآتية:

### أولاً: تشاؤم قوم صالح عليه السلام:

كان دأب الكفار من قبل أنهم يتطرون بالأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أخبر الله تعالى عن تمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَطْرَبْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ قَالَ طَتَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (١٧) [النمل: ٤٧].  
وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطْرَبْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصينا بك وبهم المكاره والمصائب، أو ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقاؤهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه<sup>(١)</sup>.

وأجاب صالح عليه السلام فقال لهم:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/٤٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/١٩٨.

أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: بركة هذا، وبشؤم هذا»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عاشور: «لما غلبتهم الحجة من كل جانب وبلغ قول الرسل ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١٧)</sup> [يس: ١٧] من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل، والاستكانة من إخفاق الحجة، والاتسام بميسم المكابرة والمنايذة للذين يبتغون نفعهم؛ انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلغيف السبب لرفض دعوتهم بما حسبه مقنعا للرسول بترك دعوتهم؛ ظننا منهم أن ما يدعونه شيء خفي لا قبل لغير مخترعه بالمنازعة فيه، وذلك بأن زعموا أنهم تطيروا بهم ولحقهم منهم شؤم، ولا بد للمغلوب من بارد العذر»<sup>(٣)</sup>.

وقول أصحاب القرية: ﴿إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ﴾ أي: «إنا نشاءمنا بكم، ومعنى «بكم» بدعوتكم، وليسوا يريدون أن القرية حل بها حادث سوء يعم الناس كلهم، من قحط أو وياء أو نحو ذلك من الضر العام، مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم، -وقد جوزه بعض المفسرين- وإنما معنى ذلك: أن أحدا لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه،

تدعونه لأنفسكم عند الله وحده، وإنكم تمتحنون بتلك الأوهام من التشاؤم، وتظنون أنه يسعدكم أو يشقيكم، وأن علم الغيب الذي تعرفونه بالطير هو عند الله تعالى علام الغيوب، ونتيجة تشاؤمهم وكفرهم بنبيهم ومن معه أهلكهم الله تعالى بالصيحة، فصعقوا بها جميعا، فانكبوا على وجوههم ولم ينبج منهم أحد.

### ثانياً: تشاؤم أصحاب القرية:

قال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(١٨)</sup> قَالُوا طَئِيرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٩﴾ [يس: ١٨-١٩].  
وقولهم: ﴿إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم.

وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها، وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشم، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: عقوبة شديدة<sup>(١)</sup>.

قال الزمخشري: «وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهاد

(٢) الكشاف، ٩/٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٦٢/٢٢.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥٦٩/٦، ٥٧٠.

قال قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، أي: أعمالكم معكم<sup>(٤)</sup>.

ثم قالوا: ﴿إِن دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾، أي: «أمن جراء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسول الله في ذلك»<sup>(٥)</sup>.

ويتضح مما تقدم أن أصحاب القرية قد تشاءموا بالرسول الذين أرسلهم الله تعالى لهم وتوقعوا الشر منهم ومن دعوتهم، لذلك كذبوهم وهددوهم بالتعذيب أو القتل أو الرجم، إلا أن الله تعالى نجاهم من أصحاب تلك القرية، ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية، ولعل عدم الإفصاح عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة، بل ذكرت على سبيل الاتعاض والاعتبار.

ثالثاً: تشاؤم آل فرعون:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥٠٣/٢٠.

(٥) انظر: تفسير المراغي، ١٥٢، ٢٢.

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارناتها دون معرفة أسبابها، ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أموراً لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم، يغالطون بذلك أنفسهم، شأن أهل العقول الضعيفة، فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورجائهم<sup>(١)</sup>.

«ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافاً بين أهل القرية، فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كل حدث مكروه يصيب أحدهم بأنه من جراء هؤلاء الرسل، اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: يقولها الواحد منهم أو الجمع، فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية»<sup>(٢)</sup>.

حينئذ أجابهم الرسل بقولهم: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، أي قالوا لهم: سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله سواه، وأولعتم بالمعاصي واجترحتم السيئات، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإننا لا ندعو إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له والإنابة إليه، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة»<sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ٣٦٣/٢٢.

(٣) تفسير المراغي، ١٥٢/٢٢.

طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣١].

والمعنى: «فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم ﴿قَالُوا لَنَا هَذَا﴾، نحن أولى بها ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سِتْرَةً﴾، يعني جدوب وقحوط وبلاء ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾، يقول: يتشاءموا ويقولوا: ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، مذ جاءنا موسى عليه السلام»<sup>(١)</sup>.

قال ابن عاشور رحمه الله: «والمراد به في الآية: أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه، فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير، لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم، فعبّر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي»<sup>(٢)</sup>.

«فمعنى ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى﴾ يحسبون حلول ذلك بهم سبباً عن وجود موسى ومن آمن به؛ وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتباعه كانوا في سعادة عيش، فحسبوا وجود من يخالف دينهم بينهم سبباً في حلول المصائب والإضرار

بهم، فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم، لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مسيئاً عن أسباب فيهم لا في غيرهم»<sup>(٣)</sup>.

لذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومقصود الآية الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى عليه السلام من الشؤم.

قال ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: «مصائبهم عند الله»<sup>(٤)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: «لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلم ولكن لا يعمل بمقتضى علمه. وقالوا شروع في بيان بعض آخر مما أخذوا به من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعواثهم عما هم عليه من الكفر والعناد»<sup>(٥)</sup>.

ويعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات التي لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب، وهي في أنفسها آيات بينات، كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/٤٨.

(٥) روح المعاني، الألويسي، ٥/٣٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/٤٧.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/٦٦.

عند الله، وإن يصبهم أمر يسيئهم، كالهزيمة، قالوا: ذلك من محمد، كأنهم ينسبونهُ إلى سوء تدييره عليه الصلاة والسلام، أو يتشاءمون به، ويهبطون بذلك هبوطاً شديداً فالحسنة ما يحسن عندهم، والسيئة ما يسوؤهم، وذلك التفكير الذي يفكرونه ناشئ من ضعفهم النفسي، وضعفهم الإيماني، وسوء ظنهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك شأن أهل النفاق ومن يستمعون إليهم من ضعفاء أهل الإسلام<sup>(١)</sup>.

وجيء في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، بكلمة (عند) للدلالة على قوة نسبة الحسنة إلى الله ونسبة السيئة للنبي عليه الصلاة والسلام، أي: قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب، ولما أمر الله رسوله أن يجيهم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مشاكلة لقولهم، وإعراباً عن التقدير الأزلي عند الله<sup>(٢)</sup>.

«والقول المراد في قوله: ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، هو قول نفسي، لأنهم لم يكونوا يجترئون على أن يقولوا ذلك علناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يظهرون الإيمان به، أو هو قول يقولونه بين إخوانهم من المنافقين، يقولون: هذه من عند محمد، فيكون الإتيان

يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وهم مع ذلك لم يروعوا عن كفرهم وعنادهم وتشاؤمهم بموسى عليه السلام ومن معه، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالغرق، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنَّهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِنَا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٦].

رابعاً: تشاؤم كفار قريش:

سار كفار قريش على ما سار عليه الأقوام والأمم السالفة في تشاؤمهم برسولهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، وقد فعلوا ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتطيروا به، وردوا كل مصائبهم إليه وإلى ما يدعو إليه، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

«أي: إن تصيبهم حال حسنة تحسن عندهم، من رخاء أو خصب أو ظفر أو غنيمة أو سعة في الرزق، يقولوا: هذه الحال من عند الله تعالى، فإن كان النصر قالوا: من

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ١٧٧٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٤.

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به؛ لأنه ليس فيما جاء به الرسول ما يقتضي الطيرة، فإنه كله خير محض لا شرف فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عيب فيها، ورحمة لا جور فيها، فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا؛ فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصباثهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم، ويحتمل أن يكون المعنى: طائرهم معكم، أي: راجع إليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود إليكم»<sup>(٥)</sup>.

بكاف الخطاب من قبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه على حسب مقام الحاكي والمحكي له، وهو وجه مطروق في حكاية كلام الغائب عن المخاطب إذا حكى كلامه لذلك المخاطب»<sup>(١)</sup>.

فأخبر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، أي: «الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، أي: لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به، من أن كل ما أصابهم من خير أو شر، أو ضرر وشدة ورخاء فمن عند الله، لا يقدر على ذلك غيره، ولا يصيب أحدًا سيئة إلا بتقديره، ولا ينال رخاء ونعمة إلا بمشيئته، وهذا إعلام من الله عباده أن مفاتيح الأشياء كلها بيده، لا يملك شيئًا منها أحد غيره»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق، ١٣٠/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/٣٦٢.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/٥٥٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/٥٥٧، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/٣٦٢.

(٥) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/٢٣٣.

أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً، والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

وقد يصل العبد بتشاؤمه أيضاً إلى القنوط والوقوع في الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَت آيْدِيَهُمْ وَإِنَّا هُمْ يَقْنُطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

أي: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء من جذب أو ضيق أو مرض، والسبب فيها شؤم معاصيهم، قنطوا من الرحمة<sup>(٣)</sup>.

وذم الله تعالى أقواماً كما مضى سابقاً في تشاؤم قوم موسى عليه السلام وأصحاب القرية من رسلهم عليهم السلام، فقد كان تشاؤمهم سبباً في كفرهم بالله تعالى، ومن ثم بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ظَلَمُوا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أكَفَرَهُمْ لَا

## أسباب التشاؤم

للتشاؤم أسباب عديدة ومتنوعة، من أهمها:

### أولاً: الكفر:

إن التشاؤم شرك بالله تعالى، خصوصاً إذا اعتقد المشائم أن ما يتشاءم به مؤثر بذاته، فهو شرك أكبر، وذلك لأنه اعتقد مع الله عز وجل موجداً وخالقاً آخر، وأما إذا اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ولكن هذه سبب، فيعد هذا شركاً أصغر، لأنه جعل التشاؤم سبباً في التأثير، والشرع لم يجعله سبباً.

ولا شك أن التشاؤم قد يصل بالإنسان إلى الكفر لما فيه من شرك وادعاء علم الغيب واعتقاد جلب النفع ودفع الضر، واليأس مما عند الله تعالى من خير؛ مما يؤدي إلى انتفاء الإيمان من المشائم تدريجياً وصولاً إلى الكفر؛ لذلك ذم الله تعالى اليائسين منه بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أي: «أنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون؛ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته فلا ييأس من رحمته، وأما الكافر فإنه لا يعلم رحمة الله ولا قلبه في رحمته؛ فبيأس من رحمته»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الرازي رحمه الله: «واعلم

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨ / ٥٠١.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣ / ٤٨٠.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦ / ٢٧٩.

يَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف: ١٣١].

وإنهم مسرفون في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا طَيْرِكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم»<sup>(١)</sup>.

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة شرك)<sup>(٢)</sup>.

وإنما جعل التشاؤم شركاً لا اعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، فاعتمدوا عليها، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وذلك مثل أن يريد الرجل سفراً، فيسمع: يا راشد، أو يا غانم، أو يا سالم؛ فيمضي في سفره اعتماداً على ما سمع، أو يريد سفراً فيسمع صياح الغراب، أو البومة فيرجع عن سفره تشاؤماً منه، كل ذلك شرك؛ لكونه لم يخلص توكله على الله عز وجل.

لذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وبين كفارته، فقد روي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم، قال: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)، قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: (يقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله إلا أنت)<sup>(٣)</sup>، أو يقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)<sup>(٤)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا طيرة، وخيرها الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)<sup>(٥)</sup>.

قال الإمام النووي: «معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لا طيرة) أي: اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك؛ لأنهم جعلوا لها أثراً في الفعل والإيجاد، وأما الفأل وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة، قال العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء، والغالب في السرور،

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٠٤٥، ٤٧١/٦، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ٣٨، ١٣/٢٢.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقيته رجاله ثقات».

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦١/٦. وصححه النووي في رياض الصالحين ص ٤٧٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الطيرة، رقم ٥٧٥٤، ٧/١٣٥.

(١) لباب التأويل، المخازن، ٣/٣٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٧، ٥٤٦/٣، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٠، ١٧/٤، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/١٦٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل، رقم ٣٥٣٨، ٢/١١٧٠. قال الترمذي: «وهذا حديث حسن صحيح».

والبلاء مع اعتقاد حصول الضر والنفع من غير الله تعالى، وإن من أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به جل وعلا، وقد ذم الله تعالى في آياته الكريمة الذين يظنون بالله تعالى ظن السوء بقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ وَقَدْ قُلْنَا بِالنَّبِيِّ أَنَّهُ كَذَّابٌ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤].

«ومعنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: حدثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله تعالى، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم، وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنون أنه منجياً لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، أي: أنهم ذهبوا بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنونا باطلة من أوهام الجاهلية، وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٤.

والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن التطير هو: التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، ويرى من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِلَّاكَ تَعَبَّدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِيثُ﴾ [الفاتحة: ٥] و﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠] فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً، فيفسد عليه قلبه وإيمانه»<sup>(٢)</sup>.

ويتضح مما تقدم: أن التشاؤم قد يكون من الشرك الأصغر المنافي لعبادة الله تعالى وتوحيده، لما فيه من سوء الظن بالله تعالى كما مر سابقاً، وقد يتحول إلى شرك أكبر، إذا اعتقد المتشاؤم أن ما يتشاءم به كان مؤثراً في حصول المكروه، أو جلب النفع ودفع الضر وأنها فاعلة بذاتها، إذ لا فاعل إلا الله تعالى، ولا مؤثر في الكون سواه، وقد يصل إلى الكفر بالله تعالى الذي يوجب الوعيد.

ثانياً: سوء الظن بالله تعالى:

لا يخلو التشاؤم من سوء الظن بالله تعالى وبأقداره الجارية، وتوقع الشر

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ١٤/ ٢١٩.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٤٧.

ولم يخلصوا الدين لله تعالى.

وقد بين لهم المراد بالظن بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، و﴿هَلْ﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سببًا في مقابلة العدو.... ويظنون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس برسول؛ إذ لو كان لكان مؤيدًا بالنصر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>.

والشاهد في الآية الكريمة أن الشاؤم هو صفة من صفات بعض أهل الجاهلية، وهو سوء ظن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، واعتراض على أقدار الله تعالى.

وهذا كله من صفات المنافقين والمشركين الذين توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد بقوله تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّوا السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٤٥/٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٥/٤.

وقد بين الإمام ابن القيم أن الظن الوارد في الآية: ظنٌ لا يليق بالله تعالى؛ بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته؛ ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن لا يليق به سبحانه ولا بحكمته وحمده ووعده الصادق؛ فمن ظن أنه يدبيل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشئته مجردة؛ فذلك ظن الذين كفروا؛ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضًا في وصفه لحال هذا الصنف من الناس: «فأكثر الخلق بل كلهم إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق،

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم، ٢٠٦/٣.

الحد<sup>(٣)</sup>، ويأتي أيضًا بمعنى مجاوزة الحد في العصيان، كما حصل مع قصة أصحاب القرية التي مر ذكرها، حيث إن المعاصي والذنوب كانت سببًا في الشؤم الذي أصابهم نتيجة كفرهم برسولهم.

وقد وصف الله تعالى أصحاب القرية بالمسرفين في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

أي: قوم عادتكم الإسراف في العصيان، فمن ثم جاءكم الشؤم، أو في الضلال، ولذلك توعدتم وتشاءتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به<sup>(٤)</sup>.

قال قتادة رحمه الله: «مسرفون في تطيركم»<sup>(٥)</sup>.

قال الشيخ ابن عاشور: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: لا طيرة فيما زعمتم، ولكنكم قوم كافرون، غشيت عقولكم الأوهام، فظننتم ما فيه نفعكم ضرًا لكم، ونظمت الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد، ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت»<sup>(٦)</sup>.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب؛ فإنها تسخط

ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: «ظلمني ربي ومنعني ما أستحق» ونفسه تشهد عليه وإن كان لسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دقائقها وطواياها رأى ذلك فيها، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر»<sup>(١)</sup>.

لذلك يقول ابن عاشور: «الشؤم يقع على من يتشأم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

وتوعد الله تعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فكان جزاؤهم بأن أرداهم الله تعالى فقال تعالى عنهم: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

ثالثًا: الإسراف في المعاصي والآثام:

لا شك أن الإسراف في المعاصي هو أساس كل شر وضلالة، فالإسراف: هو الإكثار من الشيء، والمجاوزة عن

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/٤٨٨.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/٢٦٥.

(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٤/٤١٩.

(٦) التحرير والتنوير، ٢٢/٣٦٤.

(١) المصدر السابق، ٣/٢١١.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/٦٦.

رابعًا: الجهل والضلال:

لا شك أن الجهل من أسباب التشاؤم؛ لذا وصف الله تعالى آل فرعون وغيرهم بأن أكثرهم لا يعلمون، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: «فلجهلهم بذلك كانوا يطيطرون بموسى عليه السلام ومن معه»<sup>(٤)</sup>.

قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم، بما وعدهم الله في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ بُعْرُثُونَ عَلَيَّا غَدًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ولا طائر أشأم من هذا»<sup>(٥)</sup>.

قال الخازن رحمه الله: «وإنما قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر»<sup>(٦)</sup>.

ويتضح من الآية الكريمة: أن الله تعالى ذم آل فرعون، ووصفهم بأنهم لا يعلمون بسبب جهلهم؛ حيث أسندوا حوادث هذا

الله عز وجل، فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة، كما إنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

وقال أيضًا: «فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس، خصوصًا من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين، فإذا كثر الخبث هلك الناس عمومًا، وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب»<sup>(٢)</sup>، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم)<sup>(٣)</sup>.

ويتضح مما تقدم ومن خلال الآية الكريمة: أن الإسراف في المعاصي والآثام سبب من أسباب التشاؤم الذي لحق أصحاب القرية، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ١/ ٧٦.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ١/ ٩٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٨.

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٤٥.

(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

[٦]«(٢).

والمتمأمل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة ذم الله تعالى الجهل وأهله؛ لأنه هو سبب الشر والذنوب والمعاصي، ومنه: ما حصل من تشاؤم آل فرعون وقومه من موسى عليه السلام، وشمود مع صالح عليه السلام، وأصحاب القرية مع رسلهم، ومشركو قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم، فسبب اعتقادهم هذا الشيء على خلاف ما هو عليه، فالأنبياء والرسل عليهم السلام لا دخل لهم بما نسبوه إليهم من الشؤم.

وجاء في السنة النبوية ذم الجهل، فمن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ذات يوم في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...) الحديث (٣).

(٢) المفردات ص ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/٢١٩٧.

العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، بل إلى شؤمهم.

وعلى هذا فالجهل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه: أنه شيء في الذهن، ويكون بسيطاً، أو مركباً، والجهل البسيط هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً، أما الجهل المركب فهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع (١).

وقد جعل الراغب الأصفهاني الجهل على ثلاثة أضراب:

«الأول: هو خلو النفس من العلم وهذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أم فاسداً، كتارك الصلاة عمداً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَذُوا هُرُوقًا قَالُوا عُدُوٌّ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فجعل فعل الهزؤ جهلاً، وقوله تعالى: ﴿فَتَيَبَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِصْرَلِهِمْ﴾ [الحجرات:

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص ٨٠.

والجهل لا يزول إلا بالعلم؛ لذا فعلى المسلم إذا جهل أمرًا ما فعليه الرجوع إلى العلماء قال تعالى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

ويتضح مما تقدم أن الجهل والضلال واقع في أكثر الناس، لذا لا بد للمؤمن أن يتبين من الأمور ما كان جاهلاً بها، وخصوصًا من كان لديه اعتقاد الشؤم، فالأولى به أن يعالج نفسه بالعلم النافع، ويبدل قصارى جهده فيه، لكي يتقذ نفسه من ضلالة الجهل الذي وقع فيه.

#### خامسًا: وساوس الشيطان:

حذر الله تعالى في القرآن الكريم عباده من اتباع وساوس الشيطان؛ فهو عدو للإنسان، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقوله: (واني خلقت عبادي حنفاء كلهم)، أي: مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيين لقبول الهداية، (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم)، أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل<sup>(١)</sup>.

ودلالة الحديث واضحة في بيان أن الجهل سبب الضلال؛ لذلك حذر الله تعالى منه عباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفُخُ فِيهِمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعِنَّ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

واستعاذ نبي الله موسى عليه السلام من الجهل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وكذلك استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه، بما صح عن الشعبي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)<sup>(٢)</sup>.

الكبرى، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من أن يظلم، رقم ٧٨٧٠، ٧/٢٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، رقم ٣٨٨٤، ٢/١٢٧٨. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(١) انظر: شرح النووي على مسلم، ١٧/١٩٧. (٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم ٥٠٩٤، ٧/٤٢٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٣٥، رقم ٣٤٢٧، ٥/٤٩٠، والنسائي في سننه

وعلى أية حال، فإن القصد بيان أن سبب نزول الشر بهم هو عصيانهم وكثرة ذنوبهم، وكلها تعود إلى وساوس الشيطان لهم.

وكل هذه الوسواس التي يلقيها الشيطان من باب الفتنة، لذلك قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

ونهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان وحذر منها بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وشرع لنا الاستعاذة منه ومن وسوسته فقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وعلى هذا فالأحرى بالمسلم الذي تتابه دواعي الشؤم وتنقدح في قلبه أن يستعيذ بالله تعالى مما ألقى الشيطان في نفسه من تلك الوسواس والعوارض، ويلجأ إلى الله تعالى بكثرة الدعاء، مع حسن الظن بالله والتوكل عليه في كل الأحوال.

أي: إن الشيطان معلن عداوته لكم بوسوسته، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغرکم به، ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلقائهم في العذاب الدائم من حيث لا يشعرون<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن وساوس الشيطان هي سبب من أسباب التشاؤم؛ لذلك وصف الله تعالى قوم صالح عليه السلام بأنهم قوم فتنوا بتشاؤمهم من نبيهم صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طِئِرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

ومعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون، أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة، وقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال<sup>(٢)</sup>.

قال قتادة رحمه الله: «تبتلون بالطاعة والمعصية»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٠٨/٢٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٥٦٠/٢٤، البحر المحیط، أبو حيان، ٢٤٩/٨، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير، ١٩٨/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٩٨/٦.

سادساً: التقليد:

لا شك أن التقليد سبب من أسباب التشاؤم، فهو عادة سارت عليها الأمم الوثنية القديمة، وتبعها بعد ذلك أهل الجاهلية، وبقيت مستمرة إلى وقتنا الحاضر، ويأتي التقليد بأشكال متعددة، منها: ما كان في الاعتقاد أو الأفعال أو الأقوال، والسير على ما سار عليه الآباء والأجداد، وذلك بتقليدهم في الباطل دون استناد إلى دليل في ذلك، وهذا ما حصل مع الأقوام التي ذكرناها سابقاً، مثل قوم صالح عليه السلام، وأصحاب القرية، وغيرهم حيث كان التشاؤم عندهم من باب تقليد الآباء والأجداد.

لذلك ذم الله تعالى المقلدين لأبائهم في كل أنواع الضلالة والباطل بما فيها التشاؤم؛ فقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

أي: ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل، فكان هذا الكلام مسوقاً مساق الدم لهم؛ إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقي إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق، و﴿أُمَّةٍ﴾ هنا بمعنى الملة والدين، وقوله: ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾، أي: أنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم،

وذلك ما يقولونه عند المحاجة إذ لا حجة لهم غير ذلك، وجعلوا اتباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم، بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق<sup>(١)</sup>.

«والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض، ثم بين أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلًا من قديم الدهر، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].<sup>(٢)</sup>

ورد الله تعالى على المقلدين لأبائهم وأجدادهم في العقائد الضالة وأبطل شبههم وتمسكهم بالتقليد الباطل، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

«أي أيتبعون ما ألفوا عليه آبائهم في كل حال وفي كل شيء، ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً من عقائد الدين وعباداته: أي حتى لو تجردوا من دليل عقلي أو نقلي في عقائدهم وعباداتهم»<sup>(٣)</sup>.

وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْلَوْ حِجَّتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨٧/٢٥.  
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/٦٢٧.  
(٣) تفسير المراغي، ٤٤/٢.

## صور التشاؤم

اشتهرت العرب في الجاهلية بالتشاؤم كما مر، ولا شك أن التشاؤم يظهر بصور متعددة متنوعة بحسب اختلاف الأمكنة والأزمنة والناس، وسنذكر في هذا المبحث بعض صور التشاؤم، والتي منها:

## أولاً: التشاؤم بالصور:

ويشمل هذا النوع من التشاؤم أنواعاً متعددة منها ما يأتي:

## ١. التشاؤم بالبشر.

وهذا النوع من التشاؤم قد حصل مع بعض أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام من قبل أقوامهم، كما أخبر الله تبارك وتعالى عن ذلك في قصصهم.

قال الله تعالى عن تشاؤم فرعون وقومه من موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

[الأعراف: ١٣١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ «أي: الخصب والسعة» ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، أي: هذا ما كنا نعرفه أبداً وما جرينا على اعتياده، أو أن يقولوا: لنا هذه بفرعون وعبادتنا له، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، قيل:

[٢٤].

«فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة، ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالته: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (٥٢) ﴿أَتْرَاصُوا بِهٖٓ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عَمَلٍ شَرٍّ وَإِنَّا عَلَىٰ قَتْلِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) [الزخرف: ٢٣] (١).

فكان جزاؤهم أن حلت عليهم النقمة من الله تعالى؛ وذلك لتقليدهم الأعمى في العقائد الضالة، وتكذيبهم للرسول عليهم الصلاة والسلام، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥) [الزخرف: ٢٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٤.

الضيق والقحط، ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى﴾، وقالوا بشؤمه<sup>(١)</sup>.

وهذا كما قال العرب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ نُصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ويتضح من هذه الآيات وغيرها أن التشاؤم بالبشر عادة قديمة كانت عند بعض الأقسام كفرعون وقومه، حيث كانوا يتشاءمون ويتطيرون من موسى وأتباعه، معتقدين أنهم هم سبب ما أصابهم من الجذب والضيق والقحط، وتبعهم في ذلك قوم صالح وأصحاب القرية وغيرهم، فبين الله تعالى لهم أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره، ولا دخل للرسول عليهم الصلاة والسلام في ذلك.

وكذلك منهم من يتشاءم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء، وكثير من الناس إذا لقيه وهو ذاهب لحاجة صده ذلك عنها ورجع معتقداً عدم نجاحها، وكثير من أهل البيع لا يبيع ممن هذه صفته إذا جاءه أول النهار، حتى يبيع من غيره تشاؤماً به وكراهة له، وكثير منهم يعتقد أنه لا ينال في ذلك اليوم خيراً قط<sup>(٢)</sup>.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/٥٤٥.

(٢) انظر: معارج القبول، الحكمي، ٣/٩٩٠.

## ٢. التشاؤم بالطيور.

ورد لفظ الطير في القرآن الكريم بغير معناه الحقيقي بل ببعض اشتقاقاته التي تدل على معنى التشاؤم كما مر ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمَّا نَتْنَهُوا لَنَجْمِكُمْ وَلِمَسْتَكْرِمَنَا عَذَابُ إِلِيمِ﴾<sup>(٣)</sup> قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ<sup>(٤)</sup> [يس: ١٨-١٩].

قال الأزهري: «وقيل للشؤم: طائر وطيور وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها وبنعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها وبأفعالها»<sup>(٥)</sup>.

قال الشافعي رحمه الله: «وكان العربي إذا لم ير طائراً سانحاً، فرأى طائراً في وكره حركه من وكره ليطيير، فينظر أيسلك طريق الأشائم، أو طريق الأيامن، فيشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أقروا الطير على مكثاتها)<sup>(٦)</sup>، أي: لا تحركوها، فإن تحريكها

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/١٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٧١٣٩، ٤٥/١١٣، أبو داود في سننه، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم ٢٨٣٥، ٤/٤٥٥، وابن حبان في صحيحه، رقم ٦١٢٦، ١٣/٤٩٥، والحاكم في المستدرک، رقم ٧٥٩١، ٤/٢٦٥.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

بذلك؛ إذ كان أصح الطير بصراً، ويقال: سمي أعور لقولهم: « عورات الرجل عن حاجته » إذا رددته عنها<sup>(٤)</sup>.

وعلى هذا فالغراب أكثر ما يتطير به في الشؤم، كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه.

٢. الهامة.

اسم طائر، كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها، وهي من طير الليل، وقيل: هي البومة، وقيل: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة، فتقول: اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت، وقيل: كانوا يزعمون أن عظام الميت، وقيل روحه، تصير هامة فتطير، ويسمونه الصدي، فنفاه الإسلام ونهاهم عنه<sup>(٥)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « قال القزاز: الهامة طائر من طير الليل كأنه يعني البومة، وقال ابن الأعرابي كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلي نفسي، أو أحدًا من أهل داري<sup>(٦)</sup> ».

وعلى هذا فالهامة هي نوع من أنواع الطيور، وربما تكون البومة حيث كانت العرب تتشاءم منها، فجاء في الحديث

(٤) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيقي، ٢/٢٦١.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الاثير، ٥/٢٨٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/٢٤١.

وما تعملونه، من الطيرة لا يصنع شيئاً، إنما يصنع فيما توجهون به قضاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فإن أصل التشاؤم يعتمد على حركة الطيور وأصواتها، كما قال الإمام البيهقي: « وذلك بزجر الطائر وإزعاجها عن أوكارها عند إرادة الخروج للحاجة، حتى إذا مرت على اليمين تفاعل به ومضى على وجهه، وإن مرت على الشمال تشاءم به وقعد، فهذا من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يوجبون ذلك، ولا يضيفون التدبير إلى الله عز وجل<sup>(٢)</sup> ».

ومن أبرز الطيور التي كانت العرب تتشائم منها قديماً وحديثاً ما يأتي:

١. الغراب.

وهو أعظم ما يتطيرون به، ويسمونه غراب البين؛ لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم يلتمس ويتقمم، فتشاءموا به وتطيروا إذا كان يعتري منازلهم إذا بانوا، وليس شيء مما يزجرونه من الطير والظباء وغيرها أنكد منه، ولست تراه محموداً في شيء من الأحوال، ويشتقون من اسمه الغربة<sup>(٣)</sup>.

ويسمونه أيضاً حاتمًا؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير

(١) السنن المأثورة للشافعي، المزني ١/٣٤٢.

(٢) شعب الإيمان، ٢/٣٩٦.

(٣) انظر: المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ١/٢٦٤.

الشريف النهي عن التطير بالهامة، بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)<sup>(١)</sup>.

### ٣. البارح والسانح.

«البارح من الظباء والطير، لكن خص البارح بما ينحرف عن الرامي إلى جهة لا يمكنه فيها الرمي فيتشائم به، وجمعه بوارح، وخص السانح بالمقبل من جهة يمكن رميه، ويتيمن به»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن الأثير: «فالسانح: ما مر من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح ما مر من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»<sup>(٣)</sup>.

ويتضح مما تقدم أن التشاؤم بالطيور كالغراب والبومة ونحوهما عادة كانت منتشرة عند أهل الجاهلية والأمم السالفة، يتشائمون منها ومن حركاتها وأصواتها وأفعالها، وهي من مخلوقات الله لا أثر لها في حكم الله وقضائه، فجاء الإسلام ونهى عن كل ذلك.

### ٣. التشاؤم بالحيوانات.

لا يختلف التشاؤم بالحيوانات عن التشاؤم بالطيور الذي مضى ذكره؛ لذا نجد أن كثيراً من أهل الجاهلية كانوا يتشائمون ببعض الحيوانات وأصواتها، منها:

#### ١. النطيح والناطح.

«الظبي والظائر الذي يستقبلك بوجهه، كأنه ينطحك، ويتشائم به، والقعيد من الوحش»<sup>(٤)</sup>.

#### ٢. الفرس النطيح.

إذا طالت غرته حتى تسيل تحت إحدى أذنيه، وهو يتشائم به<sup>(٥)</sup>.

#### ٣. الكلب الأسود.

وهناك من يتشائم بالأسود من الكلاب، وربما يعود هذا التشاؤم لما ورد في الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: (الكلب الأسود شيطان)<sup>(٦)</sup>.

والمراد بالحديث ليس التشاؤم منه، بل الإخبار بأن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة، وعلى ذلك فلا يصح التشاؤم به.

#### ٤. الظباء.

وذلك بتفجيرها، فإن تيامنت ذهبوا لحاجتهم، وإن تياسرت تركوها.

(٤) المفردات، الراغب ص ٨١١، ٦٧٩.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/٦٢١.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، رقم ٥١٠، ٣٦٥/١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/١٣٥.

(٢) المفردات، الراغب ص ١١٦.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/١١٤.

كان أثره في إيجاد الشؤم شديدًا. وقيل: إن العرب كانت تتطير منه، فإذا عطس العاطس، قالوا: قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله: «وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له: عمرًا وشبابًا، وإذا عطس من يبغضونه، قالوا له: وريًا وقحابًا، والوري كالرمي: داء يصيب الكبد ويفسدها، والقحاب: كالسعال وزنًا ومعنى، فكان الرجل إذا سمع عطاسًا يتشاءم به، يقول: بكلابي إني أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لأبي»<sup>(٣)</sup>.

وقال أيضًا: «وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد، كما حكى عن بعض الملوك أن سامرًا له عطس عطسة شديدة راعته، فغضب الملك فقال سميره: والله ما تعمدت ذلك، ولكن هذا عطاسي، فقال: والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك، فقال: أخرجني إلى الناس، لعلني أجد من يشهد لي، فأخرجه، وقد وكل به الأعوان، فوجد رجلًا فقال: يا سيدي، نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسي يومًا، فلعلك تشهد لي به عند الملك. فقال: نعم، أنا أشهد لك، فنهض معه وقال: يا أيها الملك، أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يومًا فطار ضررس من<sup>(٢)</sup> المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ١١٨٥/٣.

(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/٢٦٢.

وكثير مما شاكل هذا كان الناس في الجاهلية قبل النبوة يتشاءمون به، فجاء الإسلام فنهى عن كل ذلك وأبطله.

### ثانيًا: التشاؤم بالأصوات:

يتشاءم كثير من أهل الجاهلية وغيرهم من بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من أصوات، منها ما يأتي:

١. أصوات الطيور.

ومنه: التشاؤم بنعيق الغراب، أو صوت البومة إذا صاحت، قالوا: إنها ناعبة أو مخبرة بشر، ونحو ذلك.

«قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر، مبادرة بالإنكار عليه لئلا يعتقد له تأثير في الخير أو الشر، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: وأي خير عنده؟! والله لا تصحبنى»<sup>(١)</sup>.

### ٢. الثعلب.

وذلك بالتشاؤم من صوته.

### ٣. صوت العطاس.

وهو من العادات الجاهلية فإذا سمع المتشائم صوت العطاس تشاءم منه، وكذلك الثاؤب لأنه من الشيطان، وأما العطاس فقد

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/٢٣٥.

«تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، وبنى بي في شوال، فأني نسائه كان أحظى عنده مني»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي دخوله صلى الله عليه وسلم بها -أي: بعائشة رضي الله عنها- في شوال رد لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين؛ خشية المفارقة بين الزوجين، وهذا ليس بشيء»<sup>(٤)</sup>.

«وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة في شوال أيضًا»<sup>(٥)</sup>.

ووقع زواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه من السيدة فاطمة رضي الله عنها في شهر صفر، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وأما فاطمة رضي الله عنها فتزوجها ابن عمها علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفر سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسن، وولدت له أم كلثوم وزينب»<sup>(٦)</sup>.

فلم يتشاءم النبي صلى الله عليه وسلم بشهر شوال ويمتنع عن الزواج به من عائشة رضي الله عنها، ولم يؤخر زواج علي بن أبي طالب من فاطمة رضي الله عنهما في شهر

أضراسه، فقال له الملك: عد إلى حديثك ومجلسك. فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وأبطل برسوله ما كان عليه الجاهلية من الضلالة»<sup>(١)</sup>.

وهذا خلاف ما جاء في السنة النبوية الشريفة التي بينت أن العطاس أمر يحبه الله تعالى، وذلك بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سماعه أن يشمته... الحديث)<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: التثاؤم بالأزمة:

لا شك أن التثاؤم ببعض الأزمنة، مثل شهر شوال وصفر ومحرم، أو بيوم من أيامه هو من باب التثاؤم المنهي عنه، فعلى سبيل المثال كان أهل الجاهلية وغيرهم يتشاءمون من الزواج في شهر شوال.

قال ابن رجب: «كذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل: إن أصله أن طاعوناً وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية، وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت عائشة رضي الله عنها:

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٣١.

(٥) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير ٥/ ٣٠٩.

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب،

باب ما يستحب من العطاس وما يكره من

التثاؤب، رقم ٦٢٢٣، ٨/ ٤٩.

يرد نص شرعي يمنع الزواج في أي وقت من الأوقات إلا للحاج أو المعتمر حال إحرامهما.

ومن صور التشاؤم عند العرب بالأزمة أيضًا: أنهم كانوا يتشاءمون ببعض الأيام أو ببعض الساعات، كالحادي والعشرين من الشهر، وآخر أربعا فيه، ونحو ذلك، فلا يسافر فيها كثيرٌ من الناس، ولا يعقد فيها نكاحًا، ولا يعمل فيها عملاً مهمًا ابتداءً، يظن أو يعتقد أن تلك الساعة نحسٌ، وكذا التشاؤم ببعض الجهات في بعض الساعات، فلا يستقبلها في سفرٍ ولا أمرٍ حتى تنقضي تلك الساعة أو الساعات، وهي من أكاذيب المنجمين الملاحين؛ يزعمون أن هناك فلکًا دوارًا يكون كل يوم أو ليلة في جهة من الجهات، فمن استقبل تلك الجهة في الوقت الذي يكون فيها هذا الفلك لا ينال خيرًا، ولا يأمن شرًا، وهم في ذلك كاذبون مفترون قبحهم الله<sup>(٣)</sup>.

ومنهم من يترك أكل اللبن والسمك في يومي السبت والأربعاء، ويحرمون الخياطة يوم الجمعة ويوم عرفات، ويمنعون الإبرة والمنخل ليلاً تشاؤمًا، ويعتقدون أن كنس البيت بالليل يجلب الفقر<sup>(٤)</sup>.

وغير ذلك، كثير من الأمور التي

(٣) انظر: معارج القبول، حافظ حكيم ٣/ ٩٩١.

(٤) انظر: السنن والمبتدعات، الشقيري، ص ٣٣٤.

صفر، وهذا خلاف ما تفعله الشيعة، الذين يزعمون أنهم أتباع آل البيت وهم يتشاءمون من شهر صفر ومحرم، ولا يتزوجون فيهما أبدًا.

وجاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)<sup>(١)</sup>.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ولا صفر): أي كانت العرب تزعم أن في البطن حية يقال لها: الصفر، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه، وإنها تعدي، فأبطل الإسلام ذلك، وقيل: أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخير المحرم إلى صفر، ويجعلون صفر هو الشهر الحرام، فأبطله الإسلام<sup>(٢)</sup>.

وكل هذه الأقوال غير صحيحة، أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ذكره، ف شهر صفر كبقية الشهور لا أثر له في حكم الله تعالى وقضائه، ولا أصل للتشاؤم فيه ولا بغيره في الإسلام، حيث إن الزواج مطلب شرعي، ومن يتزوج فقد أحرز شطر دينه، فكيف يحرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في شهر من الشهور، أو يوم من الأيام؛ وهي كلها لله تعالى، ولم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/ ١٣٥.

(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، ٢١/ ٢٤٧.

يتشاءمون منها ولا أصل لها سوى سوء الظن بالله تعالى وضعف التوكل عليه.

#### رابعاً: الشاؤم بالأماكن:

وهو إظهار الشاؤم من عدة أماكن بحسب ما يتوقع المتشاؤم حصول الشر منها، كالدار التي يسكنها أو يريد أن يشتريها، فيخطر بباله الشؤم منها لأي سبب كان.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إنا كنا في دار كثير فيها عددنا، فقلنا فتحولنا إلى دار أخرى، فقلنا فيها عددنا، وقلنا فيها أموالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذروها ذميمة)<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقاً لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها لثلاث يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم، قال ابن العربي: وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك، وأن ذكرها بقبیح ما وقع فيها سائغ من غير أن

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٩١٨، باب الشؤم في الفرس، ٣١٦/١، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩٢٤، ٦٧/٦.

قال الحافظ ابن حجر: «له شاهد من حديث عبد الله بن شداد أحد كبار التابعين وله رواية بأسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق»، فتح الباري ٦/٦٢.

يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه وإن كان ليس منه شرعاً، كما يذم العاصي على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

وقال الخطابي: «هو استثناء من غير الجنس، ومعناه: لإبطال مذهب الجاهلية في التطير، فكأنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكنها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره؛ فليفارقها، قال: وقيل: إن شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها»<sup>(٣)</sup>.

وورد في السنة النبوية روايات تؤكد الشؤم في بعض الأمور، منها: الدار، مما يوهم التعارض مع النصوص التي ورد فيها النهي عن الشاؤم، حيث جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا عدوى، ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاث: في الفرس والمرأة والدار)<sup>(٤)</sup>، وفي رواية أخرى: عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس)<sup>(٥)</sup>.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٦/٦٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب،

باب لا عدوى، رقم ٥٧٧٢، ٧/١٣٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح،

باب ما يتقي من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٤،

٨/٧.

ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه والوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشؤمًا نذلاً يريان الشر على وجهه، فكَذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون آخر»<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا فلا يوجد تعارض بين هذه الأحاديث وغيرها التي جاء النهي فيها عن التشاؤم بالأماكن كالدار ونحو ذلك.

### خامسًا: التشاؤم بالألقاب:

ومن صور التشاؤم عند العرب ما ذكره ابن القيم رحمه الله حيث قال: «وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيرًا وتفاؤلاً، فيسمون اللديغ سليماً باسم السلامة، وتطيرًا من اسم السقم، ويسمون العطشان ناهلاً، أي: سينهل - والنهل: الشرب - تفاؤلاً باسم الري، ويسمون الفلاة مفازةً، - أي: منجاةً - تفاؤلاً بالفوز والنجاة، ولم يسموها مهلكة لأجل الطيرة»<sup>(٤)</sup>.

وقال أيضًا: «وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم، فمنهم: من سموه بأسماء تفاؤلاً بالظفر على أعدائهم، نحو غالبٍ وغلابٍ، ومالكٍ، وظالمٍ، وعارمٍ، ومنازلٍ، ومقاتلٍ، ومعاركٍ، ومسهريٍّ، ومؤرقٍ، ومصبحٍ، وطارقٍ، ومنهم: من تفاعل بالسلام كتسميتهم بسالم، وثابت، ونحوه، ومنهم:

والأمر ليس كذلك، بل يعني: أن الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء؛ فإنها أقبل الأشياء له، لكن لا وجود له فيها أصلاً، وعلى هذا فالشؤم في الحديث السابق وغيره محمول على الإرشاد منه صلى الله عليه وسلم، يعني: إن كانت له دار يكره سكنها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه، فليفارق بالانتقال من الدار، ويطلق المرأة، ويبيع الفرس، حتى يزول عنه ما يجده في نفسه من الكراهة»<sup>(١)</sup>.

قال الطبري: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»، فإنه لم يثبت بذلك صحة الطيرة، بل إنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك إن كان في شيء ففي هذه الثلاث، وذلك إلى النفي أقرب منه إلى الإيجاب، لأن قول القائل: إن كان في هذه الدار أحد فزيد، غير إثبات منه أن فيها زيدًا، بل ذلك من النفي أن يكون فيها زيد، أقرب منه إلى الإثبات أن فيها زيدًا»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «فإخباره بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤمة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم

(١) إرشاد الساري، القسطلاني، ٨/ ٢٥.

(٢) تهذيب الآثار، الطبري، ٣/ ٣٢.

(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

وفي رواية أخرى: (ولا تسمين غلامك يسارًا، ولا رباحًا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثم هو؟ فلا يكون، فيقول: لا. إنما من أربع فلا تزيدن علي) (٤).

وكذلك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: (أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينهى عن أن يسمى ببعلى، وبيركة، وبأفلق، وبيسار، وبنافع، وبنحو ذلك، ثم رأته سكت بعد عنها، فلم يقل شيئًا، ثم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يته عن ذلك) ثم أراد عمر أن ينهى عن ذلك، ثم تركه (٥).

ومعنى هذه الأحاديث: «أن الناس يقصدون بهذه الأسماء التفاؤل بحسن ألفاظها أو معانيها، وربما ينقلب عليهم ما قصدوه إلى الضد إذا سألوها فقالوا: أثم يسار أو نجيح؟ فقيل: لا، فتطيروا بنفيه وأضمروا اليأس من اليسر وغيره، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي يجلب سوء الظن والإياس من الخير» (٦).

«وقول جابر رضي الله عنه: «ثم سكت عنها»: دليل أنه ترك النهي، وأن نهيه أولاً

من تفاعل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد، وسعيد، وأسعد، ومسعود، وسعدى، وغانم، ونحو ذلك، ومنهم: من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيبًا لأعدائهم نحو أسد، وليث، وذئب، وضرغام، وشبل، ونحوها، ومنهم: من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلاً بالقوة كحجر، وصخر، وفهر، وجندل، ومنهم: من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ما تلده باسم أول ما يلقاه كائنا من كان من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره» (١).

ومنعا للتشاؤم سمت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة؛ تفاؤلاً في تجاوزها والفوز، لثلا يهلكوا فيها عند قطعها، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور (٢).

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تسمية المولود بما يتطير به، وذلك بما صح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسم غلامك رباحًا، ولا يسارًا، ولا أفلق، ولا نافعا) (٣).

- ونحوه، رقم ٢١٣٦، ٣/١٦٨٥.
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٧، ٣/١٦٨٥.
- (٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٨، ٣/١٦٨٦.
- (٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/٢٩٩٧.

(١) المصدر السابق، ٢/٢٤٦.

(٢) الحيوان، الجاحظ، ٣/٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع

بعض الأرقام، وأشهر رقم يتشاءمون به هو الرقم - ١٣ - ولذلك حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد، وحذفته بعض العمارات من أرقام الطوابق والشقق؛ لأن الناس يتشاءمون من ذلك الرقم، ويقال: إن قصة ذلك سببها خرافة نصرانية تزعم أن حواربي عيسى عليه السلام عددهم اثنا عشر حواربياً، فانضم إليه يهوذا الأسخريوطي فصاروا ثلاثة عشر، وهذا الأخير هو الذي وشى بعيسى عليه السلام وتسبب في صلبه - كما يزعمون -؛ فلذلك كرهوا هذا الرقم وتشاءموا منه، وهذه خرافة ظاهر بطلانها؛ ذلك أن الأرقام لا تقدم ولا تؤخر، وأن عيسى عليه السلام لم يصلب ولم يقتل، بل رفعه الله إليه<sup>(٢)</sup>.

وقد نفى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَتُبَيِّنُنَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفَوْنَ لَهُمْ وَلَٰكِن يَرَوْنَ الْعَذَابَ الَّذِي لَمْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ أَمْرٍ إِلَّا رِجْسًا وَمَآءٍ كَاسِرٍ﴾ [النساء: ١٥٧].

ولا دخل للرقم (١٣) في ذلك. وسار على منهج هؤلاء في التشاؤم من الأرقام الشيعة كما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله بقوله عنهم: «وأما سائر حماقاتهم فكثيرة جداً، منها: كونهم يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة، حتى في

إنما كان نهي تنزيه وترغيب؛ مخافة سوء الفأل، وما يقع في النفس مما ذكره، وعكس ما قصده المسمى بهذه الأسماء من حسن الفأل، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح، ومولى اسمه يسار، وسمى ابن عمر غلامه نافعاً، وكرهته صلى الله عليه وسلم اسم حزن وسماه سهلاً، واسم حرب ومرة لقبح معانيها، وكرهته النفوس لها، وكذلك غير اسم غراب لتشاؤم العرب به، ولما في اسمه من الغربية، ولخبثه وفسقه، وقد غير اسم شيطان وحباب، وقيل أيضاً: لأنه اسم الحية، وغير اسم أصرم؛ لما فيه من ذكر الصرم وهو القطيعة، واسم شهاب؛ لأنه شعلة من نار»<sup>(١)</sup>.

### سادساً: التشاؤم بالأرقام:

التشاؤم بالأرقام عادة لم تكن موجودة عند العرب، ولم يكن هذا الأمر معروفاً إلا عند الغربيين، ومعناه أنهم يتوقعون ما سوف يحصل لهم من أحداث سيئة بسبب رؤيتهم بعض الأرقام التي يحسبون أنها تجلب الشؤم والحظ السيء، وهذا بعيد عن مبادئ الإسلام الحنيف الذي يفوض كل ما يصيب الإنسان إلى قضاء الله وقدره الجاري على كل الكون.

حيث يتشاءم النصارى وغيرهم من

(٢) انظر: الطيرة، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٤٠.

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ١٣/٧.



الله عليه وسلم يوماً، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف)<sup>(٣)</sup>.

ولا يجوز للعبد التشاؤم من الزمان وحوادثه؛ لما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر)<sup>(٤)</sup>.

ودلالة الحديث: أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها، من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر، ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر، أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٦٦٩، ١٩٥/٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٥٩، رقم ٢٥١٦، ٤/٦٦٧. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم ١٧٦٣، ٤/٢٢٤٦.

لسوء ظنه بالله تعالى، وعدم الرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وهذا كله منافٍ لإيمان المسلم؛ لأنه لا يجتمع الإيمان مع التشاؤم، فالأمر كله لله تعالى؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

«فيه إخبار أن ما يصيب العبد من الضر والخير إنما يصيب به، ثم الضر المذكور في الآية لا يخلو من أن يراد به سقم النفس، أو ضيق العيش، أو شدة وظلم يكون من العباد، لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة، فإذا كان كذلك فدل إضافة ذلك إلى الله تعالى على أن لله فيه فعلاً، وهو أن خلق فعل ذلك منهم، فهو على كل شيء قدير من كشف الضر له، والصراف عنه، وإصابة الخير، لا يملك ذلك غيره»<sup>(١)</sup>.

قال الزمخشري: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى أو صحة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على ادامته أو إزالته<sup>(٢)</sup>.

وجاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كنت خلف رسول الله صلى

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣٨/٤.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ١٠/٢.

وهكذا يكون المسلم دائماً مع الأحداث، ويترك دواعي الشؤم التي تعتربه وتبعث في نفسه الخوف وتوقع حدوث الشر، ويرجعها إلى خالقها، ويسأله من خيرها، وأن يدفع عنه شرها، وأن يؤمن أن الله تعالى قد يتبلي العبد بشتى البلايا والمصائب ومكاره الدنيا، من القحط والجذب والمرض ونحو ذلك، مثلما ينعم عليه من النعم التي لا تحصى.

وليعلم أن ما أصابه من الأحداث مما يكره إنما هو بتقدير الله تعالى، وربما تسلط عليه بسبب ذنوبه كما قال تعالى:

﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِئْسَ وِثْقًا مِّنَ الْثِقَافِ وَتَقْصِرَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ولا شك أن الله عز وجل يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر؛ لذلك قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالأمر كله راجع إلى الله تعالى، والواجب على المسلم حسن الظن به والثوكل عليه، وأن ما أصابه مما يكره إنما هو بسبب ذنوبه، فيلقي باللوم على نفسه لا على ما تجري به الأقدار.

السبب على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومترهلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى: (فإن الله هو الدهر)، أي: فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات<sup>(١)</sup>.

ولا يصح التشاؤم من البلايا والمصائب كالمرض مثلاً؛ لأن فيه تهذيماً للنفس وتكفيراً للخطايا، وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم السائب -أو أم المسيب-، فقال: (ما لك يا أم السائب -أو يا أم المسيب- تزفزين<sup>(٢)</sup>)؟ قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)<sup>(٣)</sup>.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له)<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٣/١٥.

(٢) الزفزة: أي الارتعاد من البرد.

انظر: لسان العرب، ٩/١٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم ٢٥٧٥، ٤/١٩٩٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩، ٤/٢٢٩٥.

لهم: ﴿طَطَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: ما زجرتم من الطير علمه عند الله، ولا يدري أيكون ما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما ترجونه من العافية والمحاب<sup>(٢)</sup>.

ولحقهم في ذلك أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَطَّرْنَا بِكُمْ مَلَكُومٌ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِكُمْ مَوْجٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَسَيَكُونَنَّكُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨-١٩].

ومن ثم قوله تعالى فيما أخبر عن كفار قريش بأنهم يضيفون ما يصيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ولا يقتصر التشاؤم على العرب فقط، بل تشاءمت اليهود أيضًا من قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فقالوا: «غلت أسعارنا، وقلت أمطارنا منذ أتانا»<sup>(٣)</sup>.

## نسبة المصائب إلى أشخاص

يعتقد المتشائمون قديمًا وحديثًا بنسبة المصائب والبلايا التي تصيبهم إلى أشخاص معينين، حيث يظنون أن ما يصيبهم من بلاء وشر إنما هو بسببهم، كما أخبر الله تعالى عن تشاؤم آل فرعون وقومه بموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

أي: «يتشائمون بهم، ويقولون: هذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، يعني أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق»<sup>(١)</sup>.

وكذلك تشاؤم قوم ثمود، حيث نسبوا ما أصابهم من بلاء إلى نبيهم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَطَّرَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

أي: قالت ثمود لرسولها صالح عليه الصلاة والسلام: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٧٦/١٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٤٤/١٤.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٨٧/٥.

## آثار التشاؤم

لا شك أن للتشاؤم آثارا سيئة تنعكس على المشائم، وتسبب له خللاً في عقيدته، وتورث في نفسه أموراً كثيرة، كضعف الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، والتسخط على كل ما يصيبه في حياته من أقدار، وعدم التوكل على الله تعالى، مع اعتقاده أن التشاؤم يضره.

وقلما يخلو من التشاؤم أحد لا سيما من عارضته المقادير في إرادته، وصدده القضاء عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عذر خبيته، وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيبته، فإذا تطير أحجم عن الإقدام، ويش من الظفر، وظن أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)<sup>(٢)</sup>.

«ومعنى هذا: أن من تشاءم تشاؤماً منهياً عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يتطير به، حتى يمنعه مما يريد من حاجته؛ فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على الله ووثق به، بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاءً وقطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به من هذه الكلمات -أي ما ذكر في الحديث المذكور آنفاً- ومضى، فإنه لا يضره ذلك»<sup>(٣)</sup>.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تضر الطيرة إلا من تطير»<sup>(٤)</sup>.

قال ابن القيم: «والتشاؤم إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبا به شيئاً لم يضره البتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»<sup>(٥)</sup>.

ولا يخلو المشائم بتشاؤمه من الوقوع في الشرك ووساوس الشيطان.

ويقول أيضاً: «فالطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، يكبر ويعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشتغل

في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦/٦٢.

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/٧٢.

(٤) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/٢١٨.

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة، ٢/٢٣٠.

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي،

٣١٥/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب

تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

قال ابن عباس: «إن المؤمن من الله على خير، يرجوه في الشدائد، ويشكره ويحمده في الرخاء، وإن الكافر ليس كذلك»<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا: فإن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً، والمؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال، فلا يجتمع إيمانه بالله عز وجل مع اليأس وكرهيته ما قدره الله تعالى له.

وتتلخص آثار التشاؤم في عدة أمور منها<sup>(٤)</sup>:

١. ينافي الإيمان، ويضاد التوكل.
٢. لا يدفع مكروها ولا يجلب محبوباً.
٣. دليل قلة العقل وذهاب الحلم.
٤. اضطراب النفس وبلبلة الفكر.
٥. الفشل في الحياة.
٦. دعوة إلى تعطيل المصالح وترك السعي.
٧. صفة من صفات الجاهلية، وعادة مذمومة من عاداتهم.
٨. دعوة صريحة للكفر بالقضاء والقدر.
٩. فيها مخالفة صريحة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عن من لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره. واعلم أن من كان معتنياً بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدر، فتحت له أبواب الوسوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، فإذا سمع سفرجلاً أو أهدي إليه تطير به، وقال: سفر وجلاء. وإذا رأى ياسميناً أو سمع اسمه تطير به، وقال: يأس ومين. وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال: سوء يبقى سنة. وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به، وتشاءم بيومه»<sup>(١)</sup>.

«والتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال، سعي الخلق، يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشد الناس خوفاً، وأنكدهم عيشاً، وأضيق الناس صدرًا، وأحزنهم قلبًا، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ، ومنعها من رزق، وقطع عليها من فائدة»<sup>(٢)</sup>.

وقد يصل المتشائم عند شعوره باليأس وضعف الإيمان بالله تعالى إلى الكفر، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا

(٣) الوسيط، الواحدي، ٢/ ٦٢٩.

(٤) انظر: نضرة النعيم، ٩/ ٤١٩٩.

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣١.

(٢) المصدر السابق.

علاج التشاؤم

أولاً: الإيمان بالقضاء والقدر:

لا شك أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان العقيدة الصحيحة، وأصل من أصول الإيمان لا يصح إيمان إلا به، ومعلوم أن التشاؤم ينافيه؛ لأن فيه اعتراضاً وتسخطاً على أقدار الله تعالى الجارية على خلقه، وأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله وقضائه ومشيبته، فالمؤمن يجب أن يؤمن بذلك، ويتوكل على الله تعالى، ولا يردده شعوره بالتشاؤم عن شيء فإنه لا يضره بشيء، فالأقدار سارية عليه بما قدرها الله تعالى له من الخير والشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤٩]

[القمر: ٤٩].

أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، وإن كل كائن في هذه الحياة، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها في الخليفة، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقهم، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها<sup>(١)</sup>.

ونحو الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٨٢/٧، تفسير المراغي، ١٠١/٢٧.

كُلُّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ فَقَدِيرًا ﴿٢﴾ [الفرقان: ٢].

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾  
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١-٣].

وبما إن التشاؤم من الأقدار عادة من عادات أهل الجاهلية لذلك نرى أن كفار قريش كانوا يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، كما صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]<sup>(٢)</sup>.

ومعنى الحديث: أن المشركين وأهل الفسق يتعلقون بالأقدار، طالبين بذلك النكول عن الأعمال، فيريدون بخوضهم في ذلك الفتنة، لا التماس الحق، وقد أنزل الله عز وجل في ذلك الكافي المقنع في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾، ومعناه إنا خلقنا كل شيء، خلقناه بقدر، فيستنبط من هذا أن الله سبحانه خالق كل شيء من خير وشر، وأن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلقه بقدر سبق، ومقدار لا يزيد عنه شيء من ذلك ولا ينقص<sup>(٣)</sup>.

قال الماوردي رحمه الله: «اعلم أنه

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم ٢٦٥٦، ٤/٢٠٤٦.  
(٣) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ١٩٢/٨.

مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه<sup>(٤)</sup>.

فمن لا يتشائم ولا يستجيب لدواعي التشاؤم، ويتوكل على الله تعالى؛ فإنه ينال أفضل الدرجات وأكملها وأرفعها عند الله تعالى، وهي الجنة.

وقد بين الله تعالى أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخلص العبد من القلق، والحزن، والخوف من حصول المكروه والمصائب والبلايا الناتج من التشاؤم وغيره، بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيف يتخلصون مما يجدونه في نفوسهم من تشاؤم، وذلك بما صحح عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: (فلا تأتوا الكهان). قال: قلت: كنا نتطير. قال: (ذاك شيء يجده أحدكم في

ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة -التشاؤم-، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

أي: «بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، أي: يوفقه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره، وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا، وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس، أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر، وإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قيل: معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله، وهذا أحسن، إلا أن العموم أحسن منه<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: «ومن أصابته

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣١٤.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٣٠٣/٤.

(٣) التسهيل، ابن جزي، ٣٨١/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٧/٨.

الإدبار، واطراحها من أمارات الإقبال، فينبغي لمن مني بها وبلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى<sup>(٤)</sup>، ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً، وليمض في عزائمه واثقاً بالله تعالى إن أعطي، وراضياً به إن منع<sup>(٥)</sup>.

ويتضح مما تقدم: أن من آمن بالقضاء والقدر، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب له، وأن ما يجري من المصائب والبلايا والمحاب والمكروهات كله بقضاء الله وقدره، فقد سلم نفسه من الوقوع في آفة التشاؤم.

### ثانياً: حسن الظن بالله والتوكل عليه:

لا شك أن حسن الظن بالله تعالى له أثر كبير في حياة المؤمن وبعد مماته، فالمؤمن حين يحسن الظن بالله تعالى لا يزال قلبه مطمئناً، ونفسه راضية بقضاء الله وقدره وما يصيبه في السراء والضراء، بخلاف التشاؤم

(٤) والأثوك: أي الأحمق، وجمعه النوكى.

انظر: لسان العرب، ٥٠١/١٠.

(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣١٥، ٣١٦.

نفسه، فلا يصدنكم<sup>(١)</sup>.

«فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى<sup>(٢)</sup>.

ويشرهم عليه الصلاة والسلام بدخول الجنة ما لم يتشاءموا بما صح عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)<sup>(٣)</sup>.

«فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لإقدامه؛ ثقة بإقباله، وتحويلاً على سعادته، فلا يصدده خوف ولا يكفه حزن، ولا يثوب إلا ظافراً، ولا يعود إلا منجحاً؛ لأن الغنم بالإقدام، والخبية مع الإحجام، فصارت الطيرة من سمات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم ١٧٤٨/٤، ٥٣٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/٢٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه، رقم ١٠٠/٨، ٦٤٧٢.

على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها، ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله تعالى»<sup>(٣)</sup>.

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقدارًا ووقتًا، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها، ومقدرة بمقادير خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَنَّ شَيْءًا عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]<sup>(٤)</sup>.

وعلى هذا: فإن التوكل على الله تعالى هو حسن الظن بالله عز وجل، والبعد عن التشاؤم الذي من أسبابه سوء الظن بالله تعالى وبأقداره السارية على خلقه سواء أكان خيرًا أم شرًا؛ لأن كل هذا ينافي إيمان المسلم، ويخل بعقيدته وحسن عبادته لله تعالى.

وروي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن حسن الظن بالله من حسن العباداة)<sup>(٥)</sup>.

الذي هو سوء ظن بالله عز وجل بغير سبب، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه في كل أحواله.

وحقيقة التوكل: «هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فالتوكل مرتبط بحسن الظن بالله تعالى، وكلاهما علاج لما يصيب المسلم من دواعي الشؤم.

قال ابن القيم رحمه الله: فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، وأن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: «ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه كفاه ما أهمه في دينه ودينه، والمراد بذلك: أن العبد يأخذ بالأسباب التي جعلها الله من سنته في هذه الحياة، ويؤديها

(٣) تفسير المراغي، ٢٨/١٤١.

(٤) المصدر السابق، ٢٨/١٤٢.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨٠٢٣،

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ٢/٤٩٧.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/١٢١.

[البقرة: ١٩٥].

إذًا: حسن الظن بالله والتوكل عليه يزيل من النفس دواعي التشاؤم، وهما من أقوى الأسباب في علاجه، لذا على المسلم أن يثق بالله تعالى ويوقن أن قضاءه عليه ماض، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه جل وعلا.

### ثالثًا: العلم النافع:

كما أن الجهل والضلال سبب من أسباب التشاؤم كما مر، فإن العلم النافع هو علاج له، فما كان التشاؤم عادة من عادات الجاهلية والأمم السالفة إلا بسبب جهلهم وضلاتهم، لذلك عندما جاء الإسلام حث على طلب العلم، ومدح الله سبحانه وتعالى أهل العلم في آيات كثيرة، وكذلك السنة الشريفة، إذ هو من أفضل الأعمال الصالحة، ومن أفضل العبادات وأجلها، فقد رفع الله تعالى شأن أهل العلم بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يساوهم أحد في منزلتهم ولا رتبهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].  
وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ودلالة الآيات واضحة في بيان منزلة العلم النافع وأهله، فإنه يخرج الناس من

ودلالة الحديث واضحة في أن حسن الظن عبادة من العبادات الحسنة، كما أن سوء الظن معصية من المعاصي. ويؤكد هذا المعنى ما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله: أنا عند ظن عبدي بي) (١).

فحسن الظن بالله تعالى يذهب الشعور بالشؤم؛ لأن الله تعالى هو الذي ينفع وحده ولا يضر سواه، ثم إن شعور المسلم بالشؤم لا يذهبه إلا التوكل على الله تعالى في كل حال، لذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من خلال تعليمه الصحابة الكرام كيفية علاج التشاؤم، كما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة من الشرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) (٢).

ولا مانع أن يتوكل العبد على الله تعالى مع اجتناب الأسباب التي تكون سببًا للبلاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾

- ١/١٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن، رقم ٤٩٩٣، ٤/٢٩٨.
- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله، رقم ٧٥٠٥، ٩/١٤٥.
- (٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٩، ٣/٥٤٦، والترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/١٦٠. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ولهذا لا نجد أحدًا أنعم الله تعالى عليه بالعلم النافع إلا كان متفانيًا، بعيدًا عن التشاؤم، منشرح الصدر، ومطمئن النفس والقلب، ومؤمنًا بأقدار الله تعالى وما يحصل له في الحاضر والمستقبل، وهذا حال المؤمن؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «العلم هادٍ والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثتهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغبي والرشاد، والهدى والضلال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام

والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/٢٠٧٤.

الجهل والضلال إلى النور والمعرفة. ولأهمية العلم في حياة الناس أمر الله تعالى رسوله أن يطلب المزيد منه في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. قال قتادة رحمه الله: «لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال للخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]»<sup>(١)</sup>.

والعلم النافع يدل على أمرين: أحدهما: معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه، وخشيته ومهابته، ومحبته ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه. والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال<sup>(٢)</sup>. وإن العلم النافع طريق الجنة كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة)<sup>(٣)</sup>.

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ٤١٨/١.

(٢) فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب، ص ١٥٠-١٥١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر

ولعل المبلى بالتشاؤم أولى من غيره بمصاحبة المتقين الأخيار؛ لأن مصاحبهم وملازمتهم ستؤدي إلى اكتساب صفاتهم من تقوى وإيمان، ومكارم أخلاق، وتفاؤل وجد وإقدام، وحسن توكلٍ على الله تعالى في السراء والضراء.

لذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتزام الصادقين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وحدث على صحبة العابدين بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَفْوِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ونهى الله تعالى عن صحبة الظالمين لما فيها من حسرة وندامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

وجعل كل صحبة لا تبنى على محبة الله تعالى وتقواه مصيرها العداوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالا على الصحبة الصالحة بقوله عليه الصلاة

وبه تعرف مرضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربية، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزها، والكنف الذي لا ضيعة على من أوى إلى حرزه، مذاكرته تسيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قرية، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام<sup>(١)</sup>.

ويتضح مما مضى: إن العلم النافع هو نعمة من نعم الله تعالى على عباده، وعلاج لكل ما يصيب الإنسان من الآفات النفسية والقلبية، بما فيها الاعتقادات الخاطئة كالتشاؤم بالبشر، والمصائب والبلايا والطيور والحيوان والأسماء، وغير ذلك، وكلها تعود إلى سبب الجهل والضلال.

رابعاً: مصاحبة المتفائلين:

للصحبة الصالحة مكانة عظيمة في الإسلام، لما لها من أثر واضح في حياة الإنسان، سواء في معتقده وسلوكه وأفعاله وتوجهاته، والإنسان ميال بفطرته إلى مخالطة الآخرين ومصاحبهم، ومجالستهم والتأثر بهم.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ٤٤٠.

من لطائف منته وأسبغ عليهم من جزيل نعمه، وعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضبًا لا يشوبه رحمة، ولا عداوة لا يتخللها مودة فذلك الذي يستحق اسم الخلة؛ لقيامه بحقها، واستيفائه لشروطها»<sup>(٤)</sup>.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي)<sup>(٥)</sup>.

وفي هذه الأحاديث المتقدمة حث على صحبة الصالحين والتمتقين وتجنب جلساء السوء، وبما أن التشاؤم عادة سيئة فالأحرى بالمتشائم أن يصاحب المؤمنين الصالحين ليقتدي بإيمانهم وصلاتهم؛ فتنعكس أخلاقهم وأفعالهم وعاداتهم على سلوكه؛ فيجد نفسه قد تخلص من عاداته السيئة، ومنها التشاؤم.

#### خامسًا: الدعاء:

إن الدعاء هو الصلة القوية بين الخالق والمخلوق، وهو وقوف العبد بين يدي الله تعالى وسؤاله على وجه الافتقار والعجز والانكسار.

(٤) فيض القدير، المناوي، ٦/٢٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٢، ٤/٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم ٢٣٩٥، ٤/٦٠٠. قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

والسلام: (مثل الجلوس الصالح والجلوس السوء، كمثله صاحب المسك وكبير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشريه، أو تجد ريحه، وكبير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة)<sup>(١)</sup>.

«وقوله: في تمثيل الجلوس السوء والجلوس الصالح بحامل المسك أو نافع الكير: فيه تجنب خلطاء السوء ومجالسة الأشرار وأهل البدع والمغتائب للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جلسهم، والحض على مجالسة أهل الخير وتلقي العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة»<sup>(٢)</sup>.

وقال صلى الله عليه وسلم: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)<sup>(٣)</sup>.

«قال ابن العربي: أي عادة خليله، فمن كانت عادته في خلق الله ما عودهم الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم ٢١٠١، ٦٣/٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/٢٠٢٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١٠٨/٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/١٣٠، رقم ٨٠١٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣، ٤/٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب رقم ٤٥، رقم ٢٣٧٨، ٤/١٦٧. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

الله عليه وسلم: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ) (٣).

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته دعاء الوقاية لمن وجد في نفسه ما يكره من الأشياء وما يبعث في نفسه من شؤم، وذلك بما روي عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك) (٤).

وفي هذا الدعاء علاج لمن يجد في نفسه كراهية حدوث بعض الأشياء، فالأولى به أن لا ترده عن حاجته ويذهب متوكلاً على الله تعالى، فإن الله تعالى يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك.

### سادسًا: الفأل الحسن:

حث الله تعالى عباده على التفاؤل والبعد عن التشاؤم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿رَبِّدُّ اللَّهُ بِكُمْ الْيَسْرَ وَلَا

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٥٥، ٢٣٥/١١، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٦٦، رقم ٣٤٧٩، ٥١٧/٥.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا

من هذا الوجه».

(٤) سبق تخريجه.

قال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة» (١)، وإلى نفس هذا المعنى ذهب الإمام الرازي (٢).

لذا فإن الإقبال على الله تعالى واللجوء إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء هو من أفضل الأعمال، وعلاج لكل الآفات التي تصيب المسلم، ومنها: شعوره بالتشاؤم، فلا يمنعه ذلك من التضرع إلى الله تعالى أن يشرح صدره، ويسر أمره، ويتجاوز ما يصيبه من دوافع الشؤم بالإيمان وحسن التوكل على الله تعالى في السراء والضراء، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْوَءِ الْفَضْرَةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وعلى هذا: يجب على المسلم اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء في اليسر والشدة، والاستعانة به في كل الأحوال، مع الاعتقاد بإجابة الدعاء كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ويؤكد هذا الأمر ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى

(١) انظر: شأن الدعاء، الخطابي، ص ٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٧٧٨.

حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم، والله أعلم<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن بطال رحمه الله: «جعل الله تعالى في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي وإن كان لا يملكه ولا يشربه»<sup>(٥)</sup>.

والفأل الحسن فيه تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على الظفر، فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحرابه، فينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلاً<sup>(٦)</sup>.

وعلى هذا: فالفأل الحسن هو حسن الظن بالله تعالى وبقضائه وقدره، حيث يجلب السعادة والطمأنينة إلى النفس والقلب، ويبعث فيهما السرور والجد، بخلاف التشاؤم الذي فيه سوء ظن بالله، فلا يتحقق معه إيمان المسلم بقضاء الله تعالى وقدره في كل الأحوال، لذا فالفرق بين الفأل والتشاؤم: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والتشاؤم لا يكون إلا في السوء.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢١٥/١٠.

(٥) انظر: المصدر السابق.

(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣١٦، ٣١٧.

يُرِيدُ بِكُمْ الْمَسْرَةَ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [الشرح: ٥-٦].

وجاء أيضًا في الحديث عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة)<sup>(١)</sup>.

والفأل هو: الكلمة الصالحة والطيبة والحسنة؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الفأل؟ فقال: (الكلمة الصالحة يسميها أحدكم)<sup>(٢)</sup>.

قال القرطبي رحمه الله: الفأل هو: الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسناً، فإن سمع مكروهاً فهو تطير -تشاؤم-، وأمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسروراً، وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله<sup>(٣)</sup>.

يقول الإمام الطيبي: «معنى الترخص في الفأل والمنع من التشاؤم: فهو أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً محرّضاً على طلب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الفأل، رقم ٥٧٥٦، ١٣٥/٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الفأل، رقم ٥٧٥٥، ١٣٥/٧، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، رقم ٢٢٢٣، ١٧٤٥/٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨١/١٦.

الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ [الشعراء: ٦٣].

وكذلك ما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه في الغار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا ثُنَيْنًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمَّا تَرَوْهُ وَجَعَلَ لَكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَشْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا، قال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) (٢). وقوله عليه الصلاة والسلام: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) أي: «معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وهو

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ثَابِتًا ثُنَيْنًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، رقم ٤٦٦٣، ٦٦/٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم ٢٣٨١، ١٨٥٤/٤.

ويضرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المثل الأعلى في الفأل الحسن من خلال قصصهم الواردة في القرآن الكريم، منها: ما جاء في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَمَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

أي: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾، أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤماً بموسى عليه السلام، ولما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر، وقال ﴿كَلَّا﴾ لن تدرکوا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، أي سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه (١).

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ (١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣٥٥/١٩-٣٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠٦/١٣.

في غزوة بدر، وإخباره بمصرع كبار صناديد قريش، ويوم الحديبية فإنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد سهل لكم من أمركم) (٣).

وغير ذلك كثير من هذه الوقائع والقصص التي فيها الحث على التفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والتوكل عليه في الضراء والسراء، وأن التفاؤل من صفات المؤمنين والصالحين، خاصة أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، فالمؤمن يتوقع حصول الخير دائماً، على عكس المتشائم فإنه يتوقع حدوث الشر ووقوعه في الحاضر والمستقبل.

### موضوعات ذات صلة:

الإيمان، الطير، القدر، اليأس

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم ٢٧٣١، ١٩٣/٣.

داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وفيه: بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام. وفيه: فضيلة لأبي بكر رضي الله عنه وهي من أجل مناقبه، والفضيلة من أوجه: منها: هذا اللفظ، ومنها: بذله نفسه ومفارقة أهله وماله ورياسته في طاعة الله تعالى ورسوله، وملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك» (١).

فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: على أبي بكر رضي الله عنه، وقواه بجنود من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم، وجعل كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك السفلى، لأنها قهرت وأذلت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى وكلمة الله هي العليا، أي: دين الله وتوحيده وقول لا إله إلا الله، وهي كلمته العليا، على الشرك وأهله (٢).

وقد تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم في وقائع كثيرة ومن ذلك: تفاؤله بالنصر

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥ / ١٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٦١ / ١٤.

